مرسلات مع الريح

أسامة

للأستاذ إسماعيل مظهر

وأقبل الشيخ عمران ذات صباح يجرّ رجليه جرًّا فيثير عجاجةً من تراب الثرى ، فبادرني بالتحية ، ثم ارتمى على المصطبة كأنما ينفض عن كاهله حملاً ثقيلاً ينوء به . وكان في عينيه حزن عميق ، ورغم ابتسامة افترّ عنها ثغره ، ولكنها كانت تعبر عن حزن أعمق من ذلك الذي لاح في نظراته وشاع في تقاسيم وجهه . وكثيراً ما يكون الابتسام عن حزن دفين ، تجمد معه العين ولكن القلب في بكاء . ثم أطرق ومضى يحرك أصابعه الهزيلة فوق حبات مسبحته الكبيرة ، ويتمتم بكلمات غير بيّنة كأنه يناجي نفسه بالمعاني التي كانت تجيش في صدره

— كيف بي لا أرى الدنيا كما كنت أراها منذ أيام ؟ لقد تغيّرت فيها كل شيء وانقلب فيها كل معنى ! فالوجوه التي أراها ليست هي الوجوه التي كنت أعرفها ؛ والكلمات التي تطرق سمعي لا تؤدي في نفسي ذات المعاني التي كانت تؤديها من قبل ؛ والزمان والعمر والحياة ! تلك التي مضت تغمرني بالأمل وتشيع في نفسي معاني الحسن وأفانين الجمال ، كيف حالت تلك الألوان الزاهية الفضّة ؟ وكيف انتهى الأمل ومات الحسن وذهب الجمال ؟ في لحظة واحدة ماتت الدنيا في نفسي بكل ما غرست فيّ من المعاني الأولى ! والناس والمجتمع ونظام العيش ! كيف أصبح الناس في عيني كأنهم القرود الزُّعر يهيمون في أودية الأحلام ! وكيف بالمجتمع وقد انقلبت نظرتي فيه ، فإذا به موكب من الناس ليس فيه إلا التزوير على الطبيعة ، والتدليس على الفضائل . وكيف بنظام المعايشة وقد بانت لي في لحظة واحدة خفاياه ، فإذا به الكفران بكل ما كنت أتخيل من المعاني التي لا تزدهر الحياة إلا بها

وكان يتكلم وناظراه إلى السماء ، كأنه يأنف أن يخاطب أهل الأرض . كنت تظن أنه يناجي أشباحاً وخيالات تراءت له في الأفق البعيد ، أو أنه يقرأ هذه المعاني من كتاب صفحاته السماء

كان قد مضى بضعة أسابيع والشيخ عمران بعيد عن ندوتنا الريفية ، فلم نسأل عنه ولم نبحث وراءه . لأن هذا الشيخ المحنك له وقفات عن الاتصال بالناس ، وغيبات قد تطول وقد تقصر ، يخلو فيها بنفسه ، بعيداً عن جلبة القرية ، فيظل أياماً أو أسابيع يخرج من بيته مع الغراب ، ويأوي إليه بعد أن يموت أهل القرية تلك الميتة الصغرى . وكنا نحترم في هذا الشيخ الوقور نزعته تلك ، فلا نحاول أن نقطع عليه خيط أحلامه . رأيته مقبلاً ، فتوقّعت أن أرى تلك الابتسامة الفلسفية التي عوّدت أن أراها مرتسمة على شفتيه ، وذلك البريق الواضح الذي ينبعث من عينيه . ولكن الابتسامة كانت عن حزن ، وذلك البريق عن ريبة من أمر الدنيا . ولكن ما وراء ذلك ؟

هذا شيخ قد رمته الدنيا بأرزائها ، فسلبت منه الثراء وسلبت مع الثراء هدوء النفس ، فثار على الدنيا وعلى أهل الدنيا ، وعلى أهل اليسار منهم خاصة . فإذا كلمك فيهم ، فإنما أنت تسمع لزعيم من زعماء الاشتراكية ، أو لمسلوك متطرف من مسالك الدولية الثالثة

« الأنساب » و « أرقام الحساب » : فنقول في الأنساب مثلاً : جاء الشيخ محمدُ بنُ يوسفَ بنِ خالدِ بنِ عبد الله ، هكذا من دون إعراب . ونقرأ أرقام الحساب ، فنقول غير ملومين : سافر فلان إلى أوربا سنةَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وثلاثَ عشرةَ مثلاً . على أن بعض علماء العربية رخّص في تسكين الأعداد وحدها .

ثم إن الشيخ الإسكندري رحمه الله حوقل وتعوذ إلى الله من هذا المصير ، وتمنى ألا يعيش إلى ذلك الزمن الذي تفقد فيه اللغة حليتها . وتتعرّى من أعلاق زينتها

حقاً إن تعوّذ المرحوم الإسكندري من هذا المصير للغة في محله ، لأن التفريط بحركات الإعراب تفريط بها نفسها وإضاعة لمزية من أكبر مزاياها . وهو فوق ذلك يحدث بلبلةً في تفهم آيات القرآن وتضرّ تعاليمه بين الناطقين بالضاد إن بقيت الضاد ضاداً . ونحن نشاركه في الحوقلة والتعوّذ . ونسأل الله أن يصون لغتنا ، وأن يُبقي مجمعنا « مجمع فؤاد الأول » حارساً لها ، عاملاً على سلامتها ، في كنف الملك المعظم فاروق الأول ، كما نضرع إليه سبحانه أن يجعل القرآنَ تعويذة لجلالته من صروف الزمانْ ، ويزيدَه توفيقاً في ما يروم من إسعاد العرب ، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم ، إنه سميع مجيب .

عبد القادر المغربي
عضو مجمع فؤاد الأول

ورابنى منه أن يبادرنا بتلك الكلمات بعد تحية قصيرة من يديه المُرْعَشتين ، فتوقعت أن داهية أخرى حلت بذلك الشيخ . لعله فقد البقية من ماله ، أو اعتدى عليه أحد المفاليك ، أو اغتصبه سرى من السراة شيئاً من طينه القليل . غير أن ذلك كله لم يكن شيئاً جديداً عليه ، وتعابير الحزن الشائمة فى ملامحه كانت ولا شك تنم عن سبب أعمق من جميع هذه الأسباب ، وأمعن فى الإيلام ، وأعمل فى تحريك هواجس النفس

— ما وراءك يا شيخ ؟ لقد طالت غيبتك ، ولم نشأ أن نعكر عليك صفو تأملاتك التى تسعد بها فى حقلك إلى جانب ساقيتك وأشجارك ؛ فكيف أنت وكيف أولادك ؟

وكأن السؤال عن أولاده قد حرك جميع أوتار نفسه ، فتطلع نحو السماء وقال : « حمداً لك يا رب ! » ، ولكن دمعتان أطلتا من حدقتيه ، فدل بريقهما على كارثة لم يألفها عمران وقد حطمته السنون

— أولادى كما تعهدهم ، لم يحدث بهم حدث غير مألوف فى هذه الحياة . شاءت الطبيعة أن تستأثر بواحد منهم ، فانتزعت من قلبى فى يوم وليلة أسامة الصغير ، فقمت نحوه بالواجب الذى يقوم به الأحياء للموتى فى المادة ، وأسلمته للتراب ، إلى سفر اللانهاية ، إلى القرون ثم القرون تتوالى عليه فى حفرته تلك ، فى ظلام الأرض ، وراء تلك الحجارة الباردة المرطوبة ؛ بل وراء الأبد والأزل ، وراء السعادات والشقاوات ، وراء الأحقاد والضغائن ، وراء الآلام والأحزان ، وراء الجهالات والحفائظ ، بل وراء كل شىء ، حتى وراء الأقدار . ثم ودعته بقلبى لا بشفتىّ ، وعدت أدراجى مشتت النفس خائر القوى مضطرب الوجدان ، أضرب فى فلوات الوهم : أسائل نفسى ما الموت وما الحياة ؟ ولكن . نعم ولكن ...

ثم أمسك عن الكلام ، ودموعه تنهمر قطرات من الحزن والأسى البالغ العنيف

— ولكن ماذا ؟ لقد أثرت شجونى أيها الشيخ ، وحركت كوامن نفسى ، وأثرت فى صدرى ذكريات كانت نائمة

— ولكن . نعم ، ولكن ليست البلوى فى الموت ، ولا المصيبة فى ترك الدنيا . الداهية كل الداهية فى الحياة

ومضى ينكت فى الأرض بمخصرة كانت فى يده ، ويرسم فوق الثرى رسوماً ، أشبه بتلك التى يرسمها الأطفال على رمال الشاطىء ، لا تلبث أن تمحوها الأمواج . ثم قال :

— ولأى شىء تثور شجونك وتتحرك لواعج نفسك ؟ إنما الشجن شجنى ، والحزن حزنى ، والبلوى بلواى ؛ والعزاء بالزمن ، والسلوى بالاستسلام للقضاء . فلست فى حاجة لأن أسمع تلك الكلمات الجوف التى اعتاد الناس أن يُعَزُّوا بها عن المصيبة ، فإن إثمها أكبر من نفعها ، فتزويرها واضح لا يحتاج إلى دليل ، والتدليس فيها بيِّن لا يعوزه البرهان . والناس هم الناس ، والدنيا هى الدنيا ، والأقدار تسيِّرنا فى ليل معتم من الحوادث ، لا نستطيع أن نرجع إلى ما فات منه ، ولا أن نرسوَ فيه بأرض . لجٌّ مائج ، والسفينة تحملنا كرهاً ، فتسير رخاء حيناً ، وحيناً تلاطمها الأمواج

— إن هذه لفلسفة جديدة ، بث الحزن معانيها فى نفسك ، وأثار الشجن تفاصيلها فى وعيك . فإنى عهدتك على غير ما أنت ، صباراً غير يئوس ، جلداً غير متخاذل ، مرحاً عند الخطب قلّ أو جلّ

وكانت مخصرته ما تزال فى حركتها ترسم فى الثرى دوائر ومربعات ، وزوايا ومنحنيات ، ولوالب وإهليجات ، فكانت تلك الرقمة المتخاذلة المعانى ، المتداخلة الصور ، صفحة كاملة تقرأ فيها دخيلة نفسه ، وحركات وجدانه ، ولواعج قلبه . ومضت المخصرة ترسم ثم ترسم ، ومن ورائها لسانه يتحرك :

— كلا يا بنى . هذه الفلسفة قديمة ، ولكن معرفتنا بها جديدة . تعلمنا إياها المصيبة إذا جلت ، والفاجعة إذا نزلت . فمن فطن لها فطن للحياة ، ومن ضل عنها عاش العمر معتم البصيرة أعمى القلب . هذه الفلسفة يا بنى قطعة من الحياة ذاتها ، فكيف تكون جديدة علينا ؟ وإنما تكون معرفتنا بها أدق ، ووقوفنا عليها أتم ، كلما كانت فوادحنا أعظم ، وكوارثنا ألأم وأشأم . إن كل مرائى الحياة ومجاليها ومناظرها ، أشياء إذا مضى عليها قليل من الزمن مرت على خواطرنا كالأحلام ، لا يبقى منها إلا الحقائق المريرة ؛ وكل الحقائق مرة ألمية ، والآلام أشد حقائق الحياة مرارة ؛ تبقى فى النفس آثارها ، فإذا غيَّب الزمن بعضها

وعملت فيها دورة الليل والنهار حتى كادت تنضاف إلى وادى الأحلام ، فإنها بطبعها تكون أوضح أحلام الحياة ، وأشدّها بياناً وأعمقها أثراً ، وأبقاها مع التذكر أطول الزمن . والحقيقة كالجبل السامق تتسلقه على درج من الألم والحزن والنصب ، وكلما صعّدت فيه زادت آلامك ، وتضاعفت أحزانك ، حتى إذا بلغت القمة أشرفت منها على محيط الدنيا ، فالسماء من فوقك تجوبها ذكاء بكل عظمتها ، والأرض بوديانها وشعابها وغاباتها منبسطة تحت قدميك ، ولكن الأسف كل الأسف أن الحقيقة طريقها الألم ، طريقها الحرمان ، طريقها الأحزان تمزق نياط القلب ، وتبدد قوى النفس وتهدّ من بناء العمر ... ما أجلّها وما أقساها

— أمّا الزمان ، فذلك المجهول الذى نعامله ، كما يقول فيلسوفنا المعاصر . هو ذلك التيار الهادىء المنحدر إلى لا نهاية . هو ذلك العقد النظيم من الحركة الدائمة . هو ذلك الكائن الموهوم الذى لا يشعر بوجودنا ولا يأبه بآلامنا . ونحن لجهلنا نعامل هذا الزمان ، نعتب على الزمان ، ونغضب من الزمان ، ونتبرم بالزمان . وما الزمان فى مفهومنا المادى سوى الظرف الذى نعيش فيه . وما الظرف الذى نعيش فيه إلا تصرف القدر وتصرف ذلك الناس الذين نعايشهم . أما القدر فذلك الذى لا نعرف ، هو ذلك العالم الغيب . أما الناس فهم الناس ، أولئك الذين يعيش سوادهم دسيسة عليك فى الحياة ، والدسيسة كما يقول شكسبير تجد حماها ومستقرها فى شيئين : بشاشة الوجه ، ومعسول اللفظ . فقال :

فأمّا إن أردت رحًى أميناً تخلف بشاشة المُتَبَسِّميتا
وتحت اللفظ يقطر منك وداً هنالك تكمنين فتختفينا

— تنزل بك الكارثة ، وتحل بك القارعة ، فيواجهك الناس وعلى ألسنتهم تلك الألفاظ المحفوظة عن ظهر قلب ، تتحرك بها شفاههم ، ولا تعيها قلوبهم . وقد تفجع فى مالك أو عرضك ، فتسمع منهم جملاً وقفت على ذلك الظرف . وقد يموت لك ولد كما مات ولدى ، فيعزونك بجمل أخرى نقشت على قلوب من حجارة . وهي جميعاً صلوات ودعوات بالرحمة وطلب الصبر . وإنما هى من الألسنة لا من القلوب والصلاة التى لا تصدر من القلب لن تجد إلى الله طريقاً . وإذا ضلّت الصلاة طريقها إلى الله فما جدواها ؟

— لقد مات ذلك الصغير ، فى ذمة الأزل ، وفى ذمة اللانهاية ، وفى ذمة الزمان ينساب عليه انسياب الماء اللّيّن الهادىء إلى لا غاية . وما موته إلاّ أحد ظروف الزمان . وما أظلمنا إذ نعتب على الزمان وعلى ظروف الزمان . وإنما أعبّر بالزمان عن أولئك الذين كنت أتوقع أن أرى فى أعينهم دمعة واحدة تترقرق على فراقه ؛ فإذا بهم ينظرون فى وجهى بعيون جامدة النظرات ، وقد عقدت ألسنتهم حتى عن لوك تلك الجمل المحفوظة . وما آسف على شىء ، إلا أن ذلك الظرف قد حرك فى نفسى تلك الأفعى الجبارة ، وكانت ما تزال لحسن حظى وسنانة نائمة : حرك الحقد والضغينة والقطيعة . كانت نفسى كالبركة الهادئة النائمة فى أحضان طبيعة وادعة ، إذا مسّها النسيم تحركت أمواجها حركة لطيفة تمر بخاطرى كحلم لذيذ ؛ فلما هبت عليها هذه العاصفة تعالت أمواجها وتلاطمت حتى كدُر ماؤها ، واحتمل زبداً رابياً تتهدر من تحته براكين الألم فتزيد ثورتها عنفاً وشدة ، وذلك هو الأجر الذى ربحت بموت قطعة من نفسى : ألم القلب ، وقطيعة الناس ، وفراق الأبد !

أمنتك يا فراق وربّ يوم حذرت لو أنه نفع الحذار
أخذت فلم تدع شيئاً عليه يخاف أسى ولا يرجى اصطبار
حبيب خفتنى فيه ودار وللناس الأحبه والدّيار

— والعمر ما هو ؟ هو على التحقيق مقياس الزمن بين ساعة مولدك وساعة مصرعك ، ولكن الواقع الصحيح أن عمرك قد يطول وإن قصر مقياسه الزمانى ، وقد يقصر وإن طال مقياسه ذاك . فليس العمر هو الأيام والسنون ، بل هو اللحظات والساعات ، تقيس عليها آلامك ومسراتك .

فإن طال ألمك فأنت قصير العمر وإن امتد زمنك ، وإن اتصلت مسراتك فأنت طويل العمر وإن قصرت أيامك . ولكن